٢

الفصل الثانى

العوامل المؤثرة على طابع الطراز الباروكى بالقرن السابع عشر «إيطاليا ، فرنسا»

- مقدمة عن القرن السابع عشر .
- الحالة السياسية والاقتصادية .
- الحالة الاجتماعية .
- الحالة الثقافية .

مقدمة عن القرن السابع عشر :

لقد مهد عصر النهضة بأحداثه السياسية وتطوراته الاقتصادية والاجتماعية، ومانتج عنها من تحول فى الحياة الفكرية والفنية ، الطريق لبزوغ عصر الباروك فى القرن السابع عشر ، فظهرت فى الحياة الأوربية عوامل جديدة تتطلع إلى تغير شامل كان من شأنه أن يدفع المجتمع الأوربى إلى طريق جديد ، يحمل معالم مترسبة من مقاومات الحياة الأوربية فى العصر الوسيط ممتزجة بعصر النهضة ، كما يحمل معالم أخرى جديدة (لويس ممفورد – د.ت – ٦٣٣ ، ٦٢٣ ، ٦٣٧) ، ولذلك يعتبر القرن السابع عشر أحد معالم التطور الحديث فى أوربا الذى حقق لها أسباب التفوق وجعل منها مركز القوة والحضارة فى العالم (أمين مصطفى ، أحمد عزت – ١٩٥٤ – ٢٤) .

وقد كان لهذا القرن سمات عامة وخصائص شكلت منه مرحلة هامة فى تاريخ أوربا الحديث ، وأثرت فى اتجاهات الفنون التكشيلية لهذا العصر ، ووسعت من نطاق الرؤية أضافت إلى تجارب الإنسان فى مضمار الفنون أشياء جديدة (بدر الدين أبو غازى – د.ت – ٣٣٦) . وفن الأزياء كأحد الفنون التشكيلية الهامة لهذا العصر ينطلق متأثراً بصورة مباشرة بهذه السمات والخصائص المتمثلة فى الأوضاع السياسية والاقتصادية ، الاجتماعية ، الثقافية ، الخاصة بهذا العصر . ولذلك سوف يتناول هذا الجزء من دراسة هذه الأوضاع التى تمثل أثر كبير على صياغة وتشكيل الأزياء الباروكيه للنساء بالقرن السابع عشر .

الحالة السياسية والاقتصادية

ولقد كان النظام الملكى القائم على الحكم المطلق أو كما كان يسمى بالحق المقدس فى الحكم يسود دول غرب أوربا ،إنجلترا ، فرنسا ، أسبانيا ، البرتغال وهولندا، حيث تحول العمود الفقرى الاقتصادى والسياسى من وسط أوربا ، وتطلعت هذه الدول إلى مياه المحيط الأطلسى فاقتحمتها باحثة عن طريق جديد ومكتشفة أرضاً جديدة تتزود منها بأسباب العظمة والقوة أما دول وسط أوربا ،إيطاليا وألمانيا، فقد ظلت على حالها من التفكك والانقسام ، ولم يتح لها أن تقوم فيها ملكية مطلقة تجمع السلطة العامة بين يديها ، بل ظلتا خاضعتين لسلطان الإقطاع والكنيسة والإمبراطورية وبذلك تحول مركز الثراء الاقتصادى فى القرن

السابع عشر من وسط أوربا من «إيطاليا» إلى غربى أوربا ، إلى «فرنسا» تلك الدولة التى نما فيها البناء السياسى الأكثر تقدمية وهو الملكية المطلقة ، وأطلق على عاصمتها باريس اسم عاصمة العالم فى حوالى منتصف القرن ، وبالفعل لم تكن فرنسا فى ذلك الوقت أهم دول أوربا سياسياً فحسب ، بل كان لها السبق أيضاً من كل الشئون الاقتصادية والثقافية (أمين مصطفى ، أحمد عزت – ١٩٥٤–٢٩–٣٠–٣١–٣٢) (أرنولد هاوزر – د.ت – ٤٨٨) .

أولاً : إيطاليا :

كانت إيطاليا فى خلال القرن السابع عشر تحت الحكم الأسبانى فى عهد أسرة «هابسبرج» الذين امتلكوا ميلانو ، نابولى ، صقلية وسردينيا كما امتد نفوذ فرنسا على دوقيات مانتوا ، بارما ، مونت فيرات ، بيشنزا ، مودينا وبيديمونت . خريطة رقم (٢) . إلا أن البابوية احتفظت بمركزها فى روما حيث سيطرت الكنيسة الكاثوليكية على أوربا جميعها نتيجة لحرب المائة عام التى قامت بين فرنسا وإنجلترا ، واستمرت قوة الآباء اليسوعيين فى منتصف القرن . وكان حكام روما فى القرن السابع عشر البابا «كلمنت» الثامن (١٥٩٢–١٦٠٥) ، «بول» الخامس (١٦٠٥–١٦٢١) ، «جريجورى» الخامس عشر (١٦٢١–١٦٢٣) ، «أوريان» الثامن (١٦٢٣–١٦٤٤) ، «أينوست» العاشر (١٦٤٤–١٦٢٣) «واسكندر» السابع (١٦٥٥–١٦٦٧) (وليام لانجر – ١٩٦٣–١٠٦١) (لويجى بارزينى – د.ت–٤٦٠) .

وقد اهتم بابوات روما وعلى رأسهم «أوريان» بجعل مدينتهم عاصمة المسيحيين أجمل المدن الأوربية وزعيمة للنفوذ الكاثوليكى فى العالم المسيحى . وإستقدموا الفنانين من أنحاء إيطاليا للقيام بالأعمال الفنية المختلفة ، فكانت روما فى القرن السابع عشر المركز الرئيسى لنشاط فنى كبير فى ميادين الفنون جميعها من عمارة إلى نحت إلى تصوير ، كما كانت أهم مصدر للفنون فى أوربا (أرنولد هاوزر – د. ت – ٤٨٦، ٤٨٧) .

ولكن إنعكست حالة التفكك والإنقسام السياسى لإيطاليا على شتى جوانب الحياة وظهر ذلك على أزيائها . فلم يكن لإيطاليا فى هذا القرن أسلوب مميز ولا زى قومى ، حيث ساهمت العديد من الموضات الأجنبية والعالمية فى تشكيل الأزياء الإيطالية فى القرن السابع عشر "(Yarwood-1992-26) فكانت الأجزاء

الخاضعة منها للحكم الأسبانى تسيطر عليها الموضة الأسبانية ، أما المناطق المحررة من السيطرة الأسبانية كانت تصميمات أزيائها تتبع الخطوط الطبيعية البسيطة لتحقق أكبر قدر من الراحة تبعاً لفلسفة الحركة الإنسانية . ولذلك فقد تميزت أزياء الإيطاليات فى روما بالعظمة والفخامة الشديدة أما الأجزاء الواقعة تحت الحكم الفرنسى فقد كانت تسيطر عليها الموضة الفرنسية هذا بالإضافة إلى أن هناك أجزاء من إيطاليا جمعت أزيائها بين موضات مختلفة . وبهذا فقد أدى الانقسام السياسى لإيطاليا إلى اختلافات كبيرة فى الأزياء الإيطالية بين دول إيطاليا المختلفة (Boucher-W.D-278).

ولكن بالرغم من ذلك فقد ظلت إيطاليا إلى منتصف القرن السابع عشر من أهم الدول المنتجة لنوعيات الخامات النسيجية المختلفة فى أوربا ، وذلك لما لها من شهرة عريقة كمصدر للأقمشة الجميلة الفاخرة كالدمسق والبروكار الفاخر والحرير والقطيفة والأقمشة الذهبية والفضية ، بجانب شهرتها بصناعة الدانتيلة ، وازدهار الصناعات القائمة على دودة القز منذ القرن الثالث عشر فى توسكينيا وأوساط إيطاليا وفلورنسا (Kemper-1979-81,82) (Boucher-W.D-281) كما يرجع لها الفضل فى انتشار وأروع ماصنع من الدانتيلة فى ذلك القوت ، وذلك لخبرتها العريقة فى صناعتها بجانب ما كان يتوافر لديها من الأبر والبوبينات الخاصة بتصنيعها . وتعتبر فينيسيا من أهم المراكز المتجة لأرقى أنواع الدانتيلة فى إيطاليا هذا إلى جانب مراكز أخرى فى إيطاليا مثل ميلان ونابلس وروما وفلورنسا وجينوا. وقد كانت الدانتيلات الإيطالية الثقيلة المنتشرة فى النصف الأول من القرن تزين الأزياء بكثرة وتكسو أجزاء منها ، (Yarwood-1992-32) ولكن بعد منتصف القرن لم تعد إيطاليا من أهم الدول المنتجة والمسيطرة على صناعة وتجارة المنسوجات فى أوربا ، حيث تم تجاهل الذوق الإيطالى الذى كان منتشر كعلامة لتأثيره على الأزياء ، وحل محله الذوق الفرنسى كعلامة للنجاح والتقدم الذى حققته فرنسا فى كافة المجالات الاقتصادية فى هذا القرن (Morris lestor, Netzory Kerr-1967-129).

ثانياً : فرنسا

خرجت الملكية الفرنسية من محنة الحروب الدينية التى عمت أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وقد زادت قوتها وقوى سلطان الحكم المطلق فيها فتفوقت على «الهابسبرج» وتقدمت فى القرن السابع عشر إلى الصف الأول

بين الدول الأوربية خريطة رقم (٢) وذلك بفضل السياسة التى اتبعها ملوكها «هنرى» الرابع (١٥٨٩-١٦١٠) و«لويس» الثالث عشر (١٦١٠-١٦٤٣) فى القضاء على سلطة الأشراف وتدعيم هيئة الملكية المطلقة ، حتى تسلم «لويس» الرابع عشر مقاليد الحكم (١٦٤٣-١٧١٥) ، فحكم فرنسا حكماً مطلقاً وقال عبارته المشهورة «الدولة هى أنا» (أمين مصطفى ، أحمد عزت - ١٩٥٤ - ٣٠) (عمر الإسكندرى وسليم حسن ١٩٢٣-١٦٤) .

هنري الرابع (١٥٨٩-١٦١٠)

لقد اعتلى هنرى الرابع عرش فرنسا فى العشر سنوات الأولى من القرن السابع عشر ، واستطاع أن يعيد البناء والتنظيم للمجتمع الفرنسى من جديد بعد النزاع وإراقة الدماء فى الفترة السابقة وذلك بإرتداده إلى الكاثوليكية وأصداره مرسوم نانت للتسامح الدينى ، فكان لعمله هذا تأثير كبير فى فرنسا ، جعل الشعب يلتف حوله وبذلك انتهت الحروب الداخلية التى كادت تخرب البلاد ، وقد استطاع هنرى الرابع ووزيره «صلى» النهوض بالبلاد وتنظيم الإدارة والمالية بها وبهذا ازدهرت البلاد وارتفع مستواها (أحمد فهمى الحكيم - ١٩٢٨-٨١) .

وتعد السياسة الاقتصادية التى اتبعتها فرنسا فى ذلك القرن علماً على السياسة التجارية ، ففى فرنسا استقرت السياسة التجارية بكامل مقوماتها ، على نحو لم تعرفه دولة أخرى . وقد تمشت هذه السياسة مع بناء الاقتصاد القومى لفرنسا مع سياسة بناء الوطن الفرنسى والدولة الفرنسية تحت زعامة التاج . وغدت كل من هاتين السياستين مكملة للآخرين ، تهدفان معاً إلى جعل فرنسا أقوى دول أوربا ، وعرشها أقوى عروش أوربا وأبهاها (أمين مصطفى ، أحمد عزت - ١٩٥٤ - ١٧٠) .

ولم تتجه فرنسا فى تطبيق السياسة التجارية إلى ناحية أو نواحى خاصة كما فعل غيرها من الدول ، ولكنها بسطت إشرافها على المقومات الاقتصادية للبلاد من زراعة وصناعة وتجارة ومال ، بقصد تنظيمها من ناحية وزيادة إنتاجها وتوجيهها لخدمة الدولة من ناحية أخرى (حسين كامل - د.ت-١٦٠) .

وكانت المحاولة الأولى لرسم برانج اقتصادى شامل فى عهد «هنرى» الرابع الذى نجح هو ووزيره «صلى» فى إصلاح مالية البلاد وإصلاح الزراعة وتشجيع الفلاح والعناية به ، كما شجع الصناعات الوطنية وأدخل صناعة الحرير ، ووسع

التجارة بإنشاء أسطول قوى وتعضيد الاستعمار فى الشرق والغرب (عمر الإسكندرى وسليم حسن – ١٩٢٣-١٦٤) وبجانب جهود الملك ووزير «صلى» كان «برثلمى دى لافما» من أول الدعاة للمذهب التجارى وقد ارتبطت جهود لافما بأعمال لجنة التجارة التى أنشئت فى سنة ١٦٠١ وكان هو رئيسها وقد عملت هذه اللجنة على إثارة الاهتمام بالحياة الاقتصادية فى جميع الأوساط ، وعقدت عدة اجتماعات وصل عددها إلى ١٥٠ اجتماعاً ، تدارس فيها الأعضاء مختلف المسائل التجارية والصناعية ، وتحدثوا إلى عدد كبير من التجار والصناع ، ثم دفعوا توصياتهم إلى الملك ، ومن أهمها : –

– منح إمتيازات وإعانات إلى صناع الفلمنك المختصين فى صناعة الكتان لاجتذابهم إلى العمل فى فرنسا ، كما حثت اللجنة الملك على إصدار مراسيم بتنظيم الأصباغ والجلود ، وإلزام الصناع الأجانب باستخدام صبية من الفرنسيين .

– وقد بذلت هذه اللجنة جهوداً جبارة لتنمية الإنتاج فى فرنسا باقتباس صناعات جديدة كخيوط الذهب من ميلانو ، والسجاد والستان من بروج ، والجلود من أسبانيا والبسط الفارسية والمصرية وغيرها ومن أعظم الجهود التى بذلتها اللجنة مساعيها للتوسع فى زراعة أشجار التوت وتربية دودة القز وذلك للحد من استيراد الحرير .

واستجاب هنرى الرابع لتوصيات اللجنة ورئيسها ، فنهض بمشروعات اقتصادية مختلفة فأسس عدة صناعات كصناعة الحرير والأقمشة المزركشة بالذهب ، واحضر صناع السجاد من بلجيكا لنسج ستائر قصوره الملكية ، وأسس مصنع السجاد الجوبلان ، ومصنعاً آخر لصناعة البسط الدقيقة ، وجمع هيئة من مهرة الصناع ومنحهم الامتيازات ، وقدم لهم محلات فى ممر قصر اللورا الملكى ليمارسوا الحفر والنحت والتصوير وصناعة الجواهر ، وقد كان لذلك أثر كبير على ثراء وفخامة خامات الأزياء فى تلك الفترة . (أمين مصطفى ، أحمد عزت – ١٩٥٤ – ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥) (حسين كامل – د.ت – ١٦٤ ، ١٧٥) .

وكان من الطبيعى أن يقل اهتمام الملك بالأزياء فى هذه الفترة لاهتمامه بإعادة تنظيم البلاد بعد فترة طويلة من الحروب الدموية فلم يهتم بمكانته كحاكم للذوق والموضة ولكنه كان حساساً أكثر نحو مسئوليته كحاكم للدولة (Morris Lestor, Netzory Kerr-1967,119) . وقد أعلن ذلك عندما ذهب لبرلمان

باريس ، خاطبه قائلاً : «أنا لم أتى لأتحدث معكم فى أزياء ملكية ولا بالسيف والقبعة مثل حلفائى ولكن لابسا مثل أب لعائلة» ، ولذلك نجد الأزياء فى هذه الفترة مثل أزياء نهايات القرن السادس عشر ولكن مع إحساس جديد بالرزانة واللياقة والذوق بها (Kemper-1979-92) .

لويس الثالث عشر : (١٦١٠:١٦٤٣)

وبعد موت هنرى الرابع اعتلى ابنة «لويس» الثالث عشر فرنسا وكان صغير السن فأقيمت والدته الملكة «مارى دى مدتشى» وصية عليه ، وفى عام ١٦٢٤ تولى منصف رئاسة الوزراء مستشار الملكة الكاردينال «ريشيليو» (١٦٢٤ : ١٦٤٢) (أحمد فهمى الحكيم – ١٩٢٨ – ٨١) ، وكان ريشيليو مستشار الملك ، من أمهر الرجال وأعجبهم فى التاريخ ، وكان يعتقد اعتقاداً قوياً أن الملك هو الصورة الحية للإله ، وعلى هذا لابد أن تكون له سلطة مطلقة ، فشرع فى التخلص من أى شىء أو أى فرد يهدد السلطة المركزية فى فرنسا .

فحارب ريشيليو البروتستانت (الهيجونوت) ودمر مدنهم ، ثم شن الحرب على النبلاء الإقطاعين الذين تحدوا سلطة الملك فحطم قلاعهم وصادر أراضيهم باسم الملك وفى الوقت نفسه قوى ريشيليو الجيش والأسطول وانتظر فى الحروب التى دخلها ضد النمسا وأسبانيا وإيطاليا ، ونجح فى القضاء على سيادة الهابسبرج فى أوروبا ليجعل فرنسا صاحبة النفوذ الأعلى والكلمة النافذة فى العالم (ليليان .ج. براجدون – ١٩٦٢ – ٦٨) وعلى الرغم من أن نشاطه السياسى والعسكرى كان يستغرق جانباً كبيراً من وقته ، إلا أنه كان لايتوانى عن العمل فى الحقل الاقتصادى تقديراً منه لأهمية الاقتصاد فى دعم القوة الفرنسية (أمين مصطفى ، أحمد عزت – ١٩٥٤ – ١٧٥ ، ١٧٦) .

فقد والى ريشيلو السياسة الاقتصادية السابقة فى تشجيع وتنظيم الصناعات وتنشيط التجارة وتوسيع المستعمرات ، وحاول تأسيس عدة شركات للتجارة فى أفريقيا وأسيا والأمريكتين من أهم الشركات التى أسسها ريشيليو «شركة فرنسا الجديدة» سنة ١٦٢٧ حيث حلت محل الشركة الكندية القديمة لاستعمار كندا واحتكار تجارتها فى الفراء ، وقد بقيت هذه الشركة قائمة حتى سنة ١٦٤٤ عندما باعت حقوقها إلى شركة جديدة كونها كولبير "Colbert" فيما بعد (جون .أ. هامرتن – د.ت – ٥٣٩) .

وقد انعكست تجارة الفراء المزدهرة على الملابس ومكملاتها فى هذا القرن، فزينت أجزاء مختلفة من الملابس بالفراء الثمين ، كما بطنت أجزاء كاملة منها بالفراء ، واستخدم أيضاً فى صناعة مكملات الملابس الخاصة بتدفئة اليدين «الموفة» (Ewing-1981-60).

هذا وقد تفوقت فرنسا على غيرها من الدول فى ميادين العلوم والفنون ، حيث شجع الملك العلماء والشعراء والممثلين والفنانين على القدوم إلى البلاد ، وأسس الأكاديمية الفرنسية الذائعة الصيت للتعمق فى دراسة اللغة الفرنسية ، ولتشجيع الكتاب الفرنسيين والاستمتاع بأعمالهم الأدبية . وقد أراد رشيليو بهذا أن تجعل الأكاديمية من اللغة الفرنسية والأدب الفرنسى اللغة والأدب الأولين فى أوربا، وقد أطلق على الأعضاء الأربعين الأوائل فى الأكاديمية «الأربعون الخالدون» وما زالت عضوية الأكاديمية محدودة بهذا العدد إلى يومنا هذا (ليليان.ج. براجدون - د.ت - ٦٩) .

وقد انعكس أثر هذا التقدم على أزياء تلك الفترة ، فتميزت الأزياء فى فترة حكم لويس الثالث عشر بالقمة فى الفخامة والتأنق ، حيث ساد البلاط الملكى المصنوعات الغالية المستوردة ، متحدين الضرائب والقوانين التنظيمية للحكم الملكى السابق (Kemper-1979-92).

لويس الرابع عشر (١٦٤٣ : ١٧١٥)

ينقسم تاريخ لويس الرابع عشر إلى شطرين واضحين :

فالشطر الأول : عبارة عن المدة المحصورة بين سنتى (١٦٤٣ : ١٦٦١) وخلال هذه الفترة كان الملك صغيراً فكانت مقاليد الأمور فى أيدى أمة الملكة «آن» التى أقيمت وصية عليه ومعها الوزير الكاردينال مازارين الإيطالى الجنسية وصديق الملكة ، بل زوجها كما يظنه كثير من المؤرخون (أحمد فهمى الحكيم - ١٩٢٨ - ٨٥) وفى هذه الفترة من تولى مازارين مقاليد الحكم وكان من حظ فرنسا أن وجدت فى مازارين تلميذ ريشيلو وخليفته فى الوزارة متابعاً للسياسة التى رسمها ونفذها أستاذه (جون .أ. هامرتن - د.ت - ٥٣٩) .

وقد كانت معظم خامات الملابس بمختلف أنواعها مستوردة من الخارج فى ذلك الوقت ، فعمل مازارين على حماية منتجات الدولة المحلية من المنافسة الخارجية وذلك بإصدار المراسيم التى تحرم وتمنع استخدام الأقمشة وخامات

تزينها من الخارج . وبذلك نمت فكرة الاكتفاء الذاتى لفرنسا فى جميع مجالات الإنتاج وذلك على أساس أن الدولة لديها معظم المواد الخام اللازمة للإنتاج ، والمناخ المناسب المستقر للبلاد ، والأراضى الخصبة ، ونسبة السكان اللازمة لزراعتها ، هذا بجانب القدرات والمهارات الفنية ، وهذا كله من شأنه أن يمنع أى عجز أو تقصير فى الحصول على إنتاج محلى عالى الجودة (Yarwood-1992-44).

لذا فقد أوقف بالفعل استيراد الخامات الأجنبية فى سنة ١٦٣٠ ، وفى سنة ١٦٥٠ أصدر الكاردينال مازارين مرسوم آخر ، يمنع فيه استيراد الدانتيل الفلمنكى والفينيسى وأيضاً الأقمشة الإيطالية الذهبية والفضية (Kemper-1979-98).

أما الشطر الثانى : فينحصر بين سنتى (١٦٦١ : ١٧١٥) ، وفيها بلغ لويس الرابع عشر الحادية والعشرين من عمره عام ١٦٦٠ وتسلم من مازارين زمام الحكم ليسوس فرنسا بنفسه ، وفى أثناء هذه المدة لم يتخذ لويس وزيراً له ، وقبض على زمام الأمور بنفسه ، وصار يرى نفسه كملك تجب له الطاعة لا لأنه ملك فحسب بل لأنه يستمد سلطانه على الشعب من الله ، بل لقد دعى نفسه «الملك الشمس» متخذاً الشمس شعاراً له ، وبعد موت مازارين عين الملك كولبير وزيراً له فى سنة ١٦٦١ . (جون .أ. هامرتن – د.ت – ٥٣٧) (عمر الإسكندرى وسليم حسن – ١٩٢٣–١٧٦ ، ١٧٧) (رولان مسنييه – ١٩٨٧–٢٩٩ ، ٣٠٠) .

وكان من أهم مظاهر سيادة الحكم المطلق للملك هو قضاؤه على سلطان نبلاء الأقاليم الإقطاعيين وجعله الكنيسة جزء من الدولة بدلاً من أن تكون الدولة جزء منها ، فأصبحت باريس فى عهدة العاصمة الفكرية والفنية للعالم أجمع ، واحتلت فرنسا مركز الصدارة بين الشعوب الأوربية (ثروت عكاشة – ١٩٨٨ – ١٥٦) .

ومنذ عام ١٦٦١ استطاع الملك أن يبسط سيطرته السياسية المطلقة على فرنسا ، فلم يفلت ميدان واحد فى الحياة العامة من تدخل الدولة : إذ أن القانون ، والإدارة ، والتجارة ، والدين ، والأدب ، والفن . كل هذه كانت تنظمها الدولة المتمثلة فى الملك الشمس (أرنولد هاوزر – د.ت – ٤٩٢) . وعلى هذا النحو تطورت السياسة التجارية ، سياسة تدخل الدولة وإشرافها على مختلف أنواع النشاط الاقتصادى وتكوين نظام واحد متسق النشاط وموحد الأهداف وواضح

الم . وقد كان الفضل فى ذلك يرجع للوزير كولبير الذى وضع هذا النظام وقد عرف هذا النظام باسمه فسمى "Colbertism"(أمين مصطفى ، أحمد عزت – ١٩٥٤ – ١٧٩) .

وقد كان كولبير أول وزير مالية لفرنسا قام بإصلاحات مالية عظيمة ، فازدهرت البلاد وازدادت ثرواتها سريعاً ، وكان هذا بمثابة الدعامة الكبرى فى تشييد مجد لويس الرابع عشر (جون .أ. هامرتن – د.ت – ٥٤٠) وكان كولبير يؤمن بأهمية المعادن النفيسة ، إذ كان يرى أن مالية الدولة تعتمد على الضرائب ، وأن الضرائب إنما تتوقف على كميات النقود المتداولة فى البلاد ، لهذا سعى كولبير جاهداً لزيادة النقود المتداولة باجتذابها من البلاد الأخرى والاحتفاظ بها فى فرنسا ، وذلك بمنع تصديرها وبالعمل على إيجاد الفرص وتهيئة وجوه الانتفاع بها داخل البلاد .

ولما كانت موارد فرنسا من مناجم الذهب والفضة قليلة ، عديمة القيمة فليس أمامها لتبنى رصيدها من المعدن النفيس إلا باجتذابه من البلاد الأخرى ، وذلك بتوسيع نطاق التجارة وخاصة تجارة الصادر ، وكذلك الاهتمام بالصناعة حتى تستطيع الأمة أن تحقق الاكتفاء الذاتى . (أمين مصطفى ، أحمد عزت – ١٩٥٤ – ١٨٠ ، ١٨١) .

وكذلك يرجع الفضل إلى كولبير فى نهضة الصناعات المختلفة فى فرنسا ، فهو الذى اقترح على الملك فكرة إنشاء المصانع التى بها تصبح فرنسا أعظم مصدر لإنتاج أفخر الأقمشة فى أوربا وبجانب ذلك شدد على القوانين التى تحرم وتمنع استيراد الأقمشة الأجنبية مثل الدانتيلة والحرير والقطن ، فأقيمت فى فرنسا العديد من الصناعات الأجنبية التى لم تكن معروفة فيها من قبل ، وحدثت نهضة عظيمة فى صناعات المنسوجات (Yarwood-1992-44) . كما ازدهرت أيضاً صناعة الأثاثات الجميلة ، وفنون الكماليات ، وتحف الترف فى كل مكان ، وانتشعت صناعة نحت المرمر والقيشانى ، وأشغال الخشب المذهب ، وصناعة المعادن ، والجلد المضغوط بالرسوم الفنية ، وتكاثر الإنتاج الفنى بجميع أنواعه ، (هـ.ج. ويلز – ١٩٨٥–٢٦٩) .

حيث استدعت الحكومة مئات من مهرة الصناع الأجانب من النساجين وأهل الصباغة والدباغة وفى كافة المجالات الأخرى وذلك لتدريب الفرنسيين

وإكسابهم الخبرة والمهارة وبالذات فى مجال تصنيع الدانتيلة وذلك نظراً إلى محدودية المستوردات الفرنسية من الدانتيلة بالإضافة إلى كثرة استخدامها فى الأزياء فى ذلك الوقت . وقد كان كولبير أول من تفهم مدى أهمية إنتاج الدانتيلة فى فرنسا ، فاستحضر المصنعين الفينيسين من إيطاليا لاصقال هذه الصناعة وتطويرها وتعليم الفرنسيين المهارات الخاصة بها . وبعد سنوات قليلة استطاعت مراكز نورماندى ، وبروجاندى فرنسا أن تقف أمام المنافسات الأجنبى بتفوقها فى صناعة الدانتيلة باستخدام تصميمات فرنسية ، وأصبحت فرنسا من أكبر المراكز لإنتاج الدانتيلة فى ذلك الوقت (Boucher-WD-Yarwood-1992-44) (283,284) .

وفى سنة ١٦٦٥ أسس لويس الرابع عشر وزيره كولبير أول مصنع للدانتيلة فى فرنسا وبذلوا كل الجهد فى تشجيع طبقات الشعب على استخدام الدانتيلات الفرنسية (Evans-1950-59) ومن الربع الثالث من القرن السابع عشر حلت الدانتيلات الفرنسية الراقية محل الدانتيلات الإيطالية الثقيلة (Davenport-1962-932) وأصبحت صناعة الدانتيلة فى فرنسا من الصناعات الأساسية المتطورة جداً والتى نمت وازدهرت بها سريعاً ، وعرفت الدانتيلات الفرنسية باسم البلد أن الفرنسية المصنعة لها وزينت الأزياء بكثرة بالدانتيلة فى هذه الفترة . لذا أطلق على القرن السابع عشر عصر ازدهار الدانتيلة على الأزياء (Boucher-W.D-Yarwood-1992-32,44) (284).

ومن الصناعات النسيجية التى حظيت بتشجيع الملك ووزيره كولبير ، صناعة الصوف والكتان والقطن والحرير . فبالنسبة لصناعة الصوف ، كانت إنجلترا ودول الجنوب متحكمين فى إنتاج الصوف ، ولذلك عملت فرنسا على تطوير صناعته لحماية منتجاتها الفرنسية ، كما وضع كولبير قواعد عامة لتنظيم صناعة الصوف والكتان فى فرنسا (Boucher-WD-281).

ففى سنة ١٦٦٩ وضع كولبير نظام عام لتنظيم صناعة الأقمشة الصوفية والصباغة فى فرنسا ، وفى سنة ١٦٧٦ وضع نظام عام لتنظيم صناعة الأقمشة الكتانية فى نورماندى وبريتانى . وشملت هذه النظم الجديدة تحديد طول القماش وعرضه وخيوطه ونوع الصبغة ، واتخذت إجراءات مشددة لفحص المنتجات ، وللتأكد من مطابقتها للمواصفات ينبغى أن تبصم بعلامة خاصة ، والمنتجات التى

لاتحمل تلك العلامة تكون غير قانونية وعرضه للمصادرة (أمين مصطفى ، أحمد عزت – ١٩٥٤–١٩٤) .

أما القطن ، فكانت فرنسا تستورده من الهند عن طريق شركة شمال الهند التى أسسها كولبير ، وقد كان القطن المطبوع والمرسوم من أجود الأنسجة ومن أجمل وأزهى الألوان ، وكان غالى الثمن جداً لذا فقد اقتصر ارتداءه على الطبقات العليا من الشعب كما كان ثمنه يفوق الحرير ، وقد عرفت الفساتين المصنوعة منه باسم "Indieenes" نسبة إلى القطن الهندى (Yarwood-Nunn-1990-74) (1992-31 ، ويشير العديد من الكتاب أن الفرنسيات كانت لديهن أثواب كاملة مصنوعة من القطن الهندى ، وكانت قيمتها لاتقل عن غلو الملابس المصنوعة من الذهب والفضة .

ولكن عندما وجدت فرنسا أن هذه الخامة المستوردة انتشرت فيها بكثرة وبدأت تنافس منتجاتها المحلية ، أصدرت العديد من المراسيم لمنعها ، ومنها المرسوم الملكى الفرنسى سنة ١٦٨٠ الذى يحرم استيراد الخامات القطنية (Boucher-WD-281) ولكن استطاع الفرنسيون أن يقوموا بطباعة الأنسجة القطنية بطريقة مماثلة للمنسوجات الهندية ، وقد كانت هذه المنسوجات عالية الجودة . (Yarwood-1992-31).

أما فى مجال صناعة المنسوجات الحريرية ، فقد أنشأت الدولة مصانع للقصور الملكية لإنتاج الأقمشة الحريرية للقصور ، وأيضاً أنشأت المصانع لعامة الشعب ، وكانت الألوان والأقمشة الحريرية التى تنسج فى مصانع القصور الملكية لايرتديها عامة الشعب ، وقد انتشر اللون الأرجوانى والبنفسجى والقرمزى فى الحرائر الخاصة بالقصور الملكية ، كما صنعوا الحرير المطرز بخيوط الذهب والفضة وأيضاً الحرير المنقوش . (حسين كامل – د.ت – ١٧٥–١٧٨) .

وفى سنة ١٦٦٠ حدثت نهضة كبيرة جداً فى صناعة الأقمشة المنقوشة بألوانها المتعددة ، والأقمشة المطرزة بالذهب والفضة ، حيث أصبح هناك اتجاه نحو استخدام ألوان عديدة فى تجهيز الأقمشة (Nunn-1990-74) ، بجانب ذلك فقد أثرت العلاقات التجارية التى أقامها كولبير مع الشرق على أفكار المصنعيين حيث أخذ المصنعيين أفكار مستوحاة من الأزياء التركية لتزين الخامات النسيجية المصنعة فى سيدان Sedan ، وليونون Lyons ، وروين (Boucher-WD-283) Rouen .

كما كانت صناعة الجوارب من الصناعات التى أوليت عناية خاصة من قبل الدولة حيث زود كولبير ورش العمل الملكية بمائة عامل فى القلاع القريبة من باريس لإنتاج الجوارب الحريرية ، وفى سنة ١٦٧٢ وجدت مدارس فنية خاصة لتعليم هذه الحرفة وطورت الماكينات الخاصة بهذه الصناعة ، وتعددت الخامات المستخدمة بها فصنعت من القطن ، والصوف ، والحرير بالألوان المختلفة ، كما زخرفت بألوان مختلفة وطرق متعددة (Boucher-WD-260) .

ومن أشهر المصانع التى أنشئت فى ذلك الوقت مصنع الجوبلان ، والتباسترى لإنتاج نسيج التباسيرى الذى صور عليه حياة الملوك فى التتويج وفى الحفلات وفى الحياة اليومية ، كما صور عليه حياة الملك لويس الرابع عشر تخليداً لما يقوم به من إنجازات وأعمال (Davenport-1962-529) .

وبهذه السياسة الصناعية التى اتبعها كولبير انتشرت الأقمشة الفرنسية بمختلف أنواعها ، وأصبحت عملية تزيين الأقمشة شيء أساسى للملابس الفرنسية وذلك باليادرة من شرائط الحرير والقطيفة وأيضاً الدانتيلة التى حلت محل المطرزات الجوهرية التى كانت موضة القرن السادس عشر (Yarwood-1992-31). وقد أكمل كولبير سياسته الصناعية هذه ، بإيجاد جهاز إدارى يمكن الحكومة من ممارسة إشرافها على الصناعة ، ففى سنة ١٦٦٩ كون هيئة من ثمانية عشر مفتشاً وخص كل منهم بمنطقة معينة وزودهم التعليمات واضحة لمراقبة تنفيذ الإجراءات الجديدة وتنظيم الصناعات والإشراف على مستوى الجودة فيها (Dav-enport-1962-529)، كما أسند إلى الطوائف الحرفية مسئولية تنفيذ النظم الجديدة التى وضعها ، والتفتيش على المصانع ووضع العلامات المميزة على منتجاتها ، وشكلت محاكم خاصة للنظر فى المخالفات التى ترتكب وتطبيق العقاب على أى تقصير يحدث (أمين مصطفى ، أحمد عزت – ١٩٥٤–١٩٥–١٩٦) .

هذا وقد كانت الفنون أداة فعالة من أدوات الدعاية السياسية ، وعاملاً جوهرياً فى تأكيد هيبة الدولة ومقامها ، ووسيلة لإعلاء شأن البلاط بإبهار كبار الزوار من الأجانب وهو ما أفضى إلى أن يصبح الفن عاملاً مساعداً فى تدعيم نظام الحكم وتخليده ، وأن يكون هناك تحالف بين الفنون والحكم المطلق . (ثروت عكاشة – ١٩٨٨–١٥٦) (ارنولد هاوزر – د.ت – ٤٩٥) .

وقد كان «لويس» الرابع عشر وكذا وزيره كولبير يؤمنان بأهمية الفن وخطره إلى الحد الذى لاينبغى معه ترك أمره حراً فى أيدى الفنانين . وهو ما

انتهى بالأكاديميات المختلفة إلى أن تصبح أجهزة فرعية للحكومة ووسيلة لتسخير الفنون لخدمة الدولة فكان «لوبران» على رأس أكاديمية التصوير والنحت ، «وبوالو» على رأس أكاديمية اللغات والآداب «ومنسار» على رأس أكاديمية العمارة «ولولى» على رأس أكاديمية الموسيقى يأتمرون مباشرة بأمر الملك ، أو من ثم بات كل منهم الحاكم المطلق فى موقعه والمستشار الخاص للملك فى مجال تخصصه . وهكذا كانت الأكاديميات وسيلة لتحقيق سياسية الحكم المطلق . (رولان موسنييه - ١٩٧٨-٣٢٩، ٣٣٠) (ثروت عكاشة - ١٩٩٨ - ١٥٨) (ارنولد هاوزر - د.ت - ٤٩٦) .

وهكذا امتدت سياسية الحكم المطلق إلى فن الأزياء أيضاً ، حيث وضع لويس الرابع عشر لهذا الفن نظام رسمى قاسى لمنع ظهور أى بدع أو نزوات شخصية فى الأزياء . (Boucher-W.D-260) فلم تكن الملكة أو زوجات البلاط الملكى هن المتحكمات فى موضة البلاط فى ذلك الوقت ، ولكن كان التحكم كله لوزراء الملك الذين ينفذون الموضة التى يحددها الملك وكانت سياسة عدم النقاش للنساء فى تلك الأمور هى الأمر المحتوم وقد كان كل شىء فى الأزياء يحدد بأسلوب مدروس ويطبق كما حدده الملك (Yarwood-1992-47).

هذا وقد وضع الملك قوانين صارمة للنقابات الخاصة لخدمة البلاط الملكى، وعمل على استبعاد أى عامل لايخضع لهذه القوانين ، وبذلك كان الفنانون الحرفيون العاملون بمهنة الحياكة خاضعين تحت النفوذ والسلطان الملكى المطلق . وفى سنة ١٦٥٥ شكلت نقابة خاصة بخياطى البدل والصدريات وتجار الجوارب ، وكانت كل فئة منهم تنتج جزء واحد من الملبس ، وانفصل خياطو الرجال عن خياطى النساء الذين أصبحوا متخصصين فى حياكة ملابس النساء فقط .

وفى سنة ١٦٦٧ شكلت نقابة خاصة للعاملات من النساء بمهنة الحياكة ، حيث حددت عمل النساء فى الملابس الداخلية فقط وملابس الأولاد تحت سن ٨ سنوات ، ولم تتمكن السيدات حتى القرن الثامن عشر من أن تتقن كل أجزاء ملابس السيدات (Boucher-W.D-270).

وبذلك استطاع الملك لويس الرابع عشر أن يصوغ الموضة بأسلوب خاص متميز يخدم أغراض الملك الشمس ، وبذلك نال البلاط الفرنسى الاعتراف الدولى بأساليبه وأزيائه وفنه على حساب الطابع القومى للثقافة الفرنسية . وأصبحت

العاصمة باريس هى القاعدة الأساسية لتصميم الموديلات التى تنتقل منها إلى جميع أنحاء العالم وذلك عن طريق عرائس الموضة التى ترسل كل شهر إلى العواصم الأوربية المختلفة ، وكانت تلك العرائس تمثل قمة الموضة الفرنسية فى ذلك الوقت (Yarwood-1992-43) (Boucher-W.D-260) .

الحالة الاجتماعية :

يشكل النظام الطبقى للمجتمع فى القرن السابع عشر أسلوب الحياة الباروكية التى عاشها أفراده ، معتنقين قيماً وأفكاراً باروكية ، ومحاطين بمظاهر اجتماعية جديدة تمثلت فى نواحى عديدة كان من أبرزها موضة الأزياء التى كان اتباعها أو تغييرها موقوف على الطبقة التابع إليها الفرد (لويجى بارزينى – د.ت – ٤٥٦) (لويس مفورد – د.ت – ٦٧١) .

أولاً : إيطاليا :

ففى إيطاليا ، كان التنظيم الصارم فيها مفروض عليها من الخارج من سلطتين عالميتين وهما : أسبانيا والكنيسة (*) ، وقد أدت حالة عدم الاستقرار بها إلى انقسام المجتمع الإيطالى إلى طبقتين وهما :

١- طبقة النبلاء (الطبقة الأرستقراطية) :

وهم قلة يؤلفون الطبقة العليا التى تحيا فى حياة الترف والبذخ ، وقد انعكس ذلك على أزيائهم ، فتميزت الأزياء بالفخامة وبالإفراط الشديد فى الموديلات

(*) يعتبر الانتصار الديني الذي حققته الكنيسة الكاثوليكية في القرن السابع عشر ، نتيجة مثمرة لحركة الإصلاح الديني المضاد في القرن السادس عشر ، وقد مثلت الكنيسة في هذا القرن أمبراطورية روحية ضخمة موغلة في كل قطر كاثوليكي ، تستمد قوة لاحدود لها من ولاء الأمراء الكاثوليك ومن ايمان جمهور الكاثوليك ، وكان لصاحب الجلالة الكاثوليكية ملك أسبانيا المقام الأول بين الأمراء الكاثوليك ومن أكثرهم إخلاصاً وتعصباً للكرسي البابوي المقدس ، ولهذا فقد استغلت الكنيسة سلطة الجنود الأسبان لفرض مراسيمها وأوامرها لحماية الوحدة الكاثوليكية (لويجي بارزيني – د.ت – ٤٦٠) ، وفي الوقت ذاته أخذت الكنيسة تزداد تسامحاً مع المؤمنين وتمنح كل حرية ممكنة داخل معسكرها الخاص، وتؤكد أنه في متع الحياة الدنيوية بهجة وسرور ، ولذلك أصبح الاتجاه الدنيوي واضحاً في سياسة الهيئة البابوية في روما معبراً عن نفسه مادياً في شتي المجالات وحتي في الفن بأشكالاً كافة (ارنولد هاوزر – د.ت – ٤٨٦) .

والخامات المستخدمة وأساليب الزينة بها وكان ذلك بالأخص فى فينسيا وروما .(Hale-1995-37) (Boucher-W.D-276)

٢- طبقة عامة الشعب :

وهى تلك الطبقة التى تشمل الجموع الغفيرة المثيرة التى ظلت تحتفظ بسلوكيات حياتها ، ولم تتأثر بالنهضة الباروكية ، وبدت فى أشكال متواضعة وانعكس ذلك على مظهرها الخارجى ، فكان من الممكن أن نجد هؤلاء الأفراد يرتدون نوعيات الأزياء التى يرجع أصلها إلى الأصل الإغريقى الرومانى ، حيث لم يكن هناك أدنى تأثر بالطراز الباروكى (لويجى بارزينى - د.ت - ٤٥٨ ، ٤٥٩) .

ثانياً : فرنسا :

وفى فرنسا كان المجتمع مكونا من ثلاث طبقات رئيسية وواضحة وهى :

١ - طبقة النبلاء (الطبقة الأرستقراطية) .

٢ - الطبقة الوسطى (الطبقة البرجوازية) .

٣ - الطبقة الفقيرة .

١ - طبقة النبلاء (الطبقة الارستقراطية) :

تعد هذه الطبقة العمود الفقرى للأمة ، وتتمتع بامتيازات كبيرة ، وتضم فئات فردية «كالأمراء ، ورجال البلاط، ورجال المال» ، الذين يستمدون قوتهم من عطف الملك ومن محاباته لهم ، ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه فى حالة استعداد دائم للتآمر على التاج . لذا كان لابد من القضاء على قوتهم ومعارضتهم للحكم، حتى تتمكن الحكومة من أن تحكم دون أن يعكر صفوها شئ. وهكذا عمل لويس الرابع عشر على القضاء على نفوذ هذه السلطة ومعارضتها للتاج وذلك برفع الطبقة البرجوازية إلى طبقة النبلاء (أرنولد هاوزر - د.ت.- ٤٨٨ ، ٤٨٩) (رولان موسنييه - ١٩٨٧ - ٣٠٤) .

٢- الطبقة الوسطى (الطبقة البرجوازية) :

وتعد هذه الطبقة اليد المساندة لسياسية الحكم القوية ، والتى دائماً تبلغ أوج ازدهارها عندما يكون هناك سلام داخلى فى البلاد . ولذلك أيدت هذه الطبقة

سياسة الحكم المطلق بحماسة ، وهذا الأمر كان له تقديره البالغ عن الملك والحكومة ، ولذا فقد منحها الملك ألقاب النبلاء ، وأصبح هناك عدد متزايد من أفراد الطبقة الوسطى يدخلون فى زمرة النبلاء وأطلق عليهم «طبقة النبلاء المعينين» (أرنولد هاوزر – د.ت – ٤٨٨ ، ٤٩٠) ، ومن أمثلة البرجوازين الذين رفعهم الملك إلى طبقة النبلاء «لوتييه» «وكولبير» اللذان أصبحا سيدين لهم حق القدوم فى حضرة الملك مع نسائهما ، ويسمح لهم بالتقرب إليه ، وتمتعا بالغنى والثراء بتملك الاقطاعات فغدوا أسياداً ، وبذلك غدت خدمة الملك الذى يجسد الدولة ، رويداً رويداً مقياس تصنيف طبقات المجتمع . (رولان موسنييه – ١٩٨٧–٣٠٤ ، ٣٠٥) .

وقد أدى ذلك إلى تذمر الأشراف (طبقة النبلاء) ، وذلك لأنهم يحتقرون هؤلاء «البرجوازين» وقد دمدم «سان – سيمون» قائلاً كان هذا الملك ملك برجوازية حقيرة ، لذلك فقد حاول الملك تعويض الطبقة الأرستقراطية عن فقدان النفوذ الذى لحق بها نتيجة للتعيينات الجديدة فى طبقة النبلاء ، وذلك بأن وفر لهم المراتب الرفيعة وسبل العيش . فإحتفظ لهم بمناصب الحكام وبعدد وفير من رتب الجيش ولاشقائهم بمعظم الوظائف الكنسية (*) (رولان موسنييه – ١٩٨٧–٣٠٥)

(*) لقد تمتعت الكنيسة في فرنسا في العشر سنوات الأولي من القرن السابع عشر بالهدوء والاستقرار نتيجة تسوية المنازعات الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت الفرنسيين المتعصبين الذين عرفوا باسم «الهيجونوت» وذلك بإصدار «هنري» الرابع مرسوم نانت للتسامح الديني، الذي سمي باسم المدينة التي وقع فيها وذلك في سنة ١٥٩٨ ، وقد منح هذا المرسوم الحرية الدينية للشعب فعاد البروتستانت مرة أخري يمارسون عبادتهم كيفما شاءوا ، وبذلك نالوا حقوقاً واسعة لم ينالوها من قبل خلال السنوات العشرة الأولي من القرن السابع عشر حيث كان هذا المرسوم أول اعتراف رسمي صادر من حكومة أوربية كبيرة يبيح للناس حرية المعتقد ويعاملهم مع اختلاف عقيدتهم بالعدل والمساواة بينهم (أحمد فهمي الحكيم – ١٩٢٨–٥٢) ولكن في عهد الملك «لويس» الثالث عشر و«لويس الرابع عشر عادت الحروب الدينية مرة أخري بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولكن استطاع الملك لويس الرابع عشر أن يقود الكنيسة في فرنسا ويركز كل السلطة في شخصه ويحقق الوحدة الدينية بها وذلك بقضاءه علي البروتستانت والغائه لمرسوم نانت في سنة ٦٨٥ وقد أدي ذلك إلي ارتداد أعداد كبيرة من البروتستانت إلي الكاثوليكية هذا بالإضافة إلي إرغامه البابا علي الاكتفاء بسلطة روحية وهمية علي الكنيسة وذلك علي أساس أن الملك يستمد سلطاته الزمنية مباشرة من الله، كما يستمد البابا سلطاته الروحية وليست سلطة الملك من دون سلطات البابا صفة الهية ، بل هي مساوية لها ومستقلة عنها وبذلك استطاع الملك لويس الرابع عشر أن يكون رئيساً لكنيسة قومية تخضع خضوعاً كلياً لسلطة الدولة المطلقة ولايربطها بالبابا سوي رابطة الاحترام (رولان موسنييه ١٩٨٧ – ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد عمل الملك على نشر أسطورة الامتياز الأخلاقى والعقلى الرفيع لأفراد هذه الطبقة بكل الوسائل الممكنة فى الفن والأدب الرسميين ، ولكن بالرغم من ذلك فقد ظلت البرجوازية تشغل المناصب الهامة فى المحاكم والخزانة، بل أنها بدأت تنافس طبقة النبلاء فى ميدان الحياة الثقافية (ارنولد هاوزر – د.ت- ٥٠٧) .

وقد أدى ذلك إلى تعمد توسيع المسافة بين الأرستقراطية «طبقة النبلاء الوراثية» والبرجوازية «طبقة النبلاء المعينين» بكل الوسائل الممكنة ، والتى كان من أبرزها الأزياء ، حيث بالغت طبقة النبلاء الوراثة فى البحث عن مكانتها المرموقة من خلال أزيائها الفخمة الأنيقة ، لتفوقهم بعضهم على بعض ، ولتفوقهم أيضاً على أزياء الطبقة البرجوازية الثرية «طبقة النبلاء المعينين» . (Kemper-1979-92) .

وقد أتم الملك لويس الرابع عشر تنظيم الحياة الملكية بقصر فرساى ، فجمع حوله حاشية ضخمة وكافة ذوى الشأن من النبلاء ، وأصبح البلاط الفرنسى بفرساى يشكل مسرحاً فخماً يضم لويس وحاشيته الذين مارسوا الأبهة التى لاتنتهى أبداً للملك الشمس فى عز مجده ، وقد كان هذا الجو المبهر المصطنع بمثابة تعويضاً سيكولوجياً لطبقة النبلاء ، وضماناً لسيطرة تامة للملك على هذه الطبقة وذلك من خلال مشاركتهم فى آداب وضيافة البلاط الملكى التى كانت عبارة عن دائرة مرهقة لاتنتهى من الحفلات ، كحفلات «الميلاد ، التعميد ، الزواج ، والتتويج» التى لاتخلو فى جميع مراحلها من طقوس لاينقطع حبلها ، كما كانت كل ساعة تخصص لمناسبة لعينها بما تضم من لقاءات واجتماعات تتنوع شخوصها وأزيائها وذلك كالذهاب للكنيسة ، والترجل فى الحدائق ، ورحلات الصيد وركوب الخيل وقد كانت كل هذه الحفلات والأنشطة تتطلب تغيير مستمر للأزياء فى كل مناسبة ، حيث كان الملك يطلب من رجال ونساء البلاط الملكى ارتداء ملابس جديدة دائماً ، وكان النظام الملكى الذى ينظم التعامل بين الملك وحاشيته قاسى ومعقد وصارم جداً (Kemper-1979-100,101) .

وقد ظهر ذلك فى سلسلة من الأعياد المدهشة الفاتنة حيث كان الملك يظهر بثياب آلهة الأولمب وأفراد حاشيته بثياب الآلهة الثانويين أو الأبطال . وبذلك استطاع الملك أن يحقق الخضوع الكامل من طبقة النبلاء حيث علمتهم آداب

البلاط أن يروا فى الملك كائناً يفوق قدره البشر (رولان موسنيية – ١٩٨٧– ٣٠٥).

٣- الطبقة الفقيرة

أما بالنسبة للطبقة الفقيرة ، فتمثل هذه الطبقة الغالبية العظمى من الشعب من سكان المدينة والريف والتى لم تكن تحيا داخل عظمة إطار الحياة الباروكية ، ولكنها تحيا فى إطار البؤس والفقر والضجر والتمرد لهذه الحياة التى كانت موجهة أساساً لخدمة الأوساط الممتازة وبذلك لم تستطيع الطبقة الفقيرة أن تساير الاتجاهات الجديدة لنوعيات الأزياء الباروكية التى انتشرت بين الطبقات الأرستقراطية (لويس ممفورد – د.ت – ٧٢٥) .

الحالة الثقافية :

يعتبر العلم الطبيعى الجديد والفلسفة الجديدة المبنية عليه واحداً من أهم المنجزات الثقافية لعصر الباروك ، حيث أن النظرة (*) الكلية الشاملة التى عبر عنها هذا العلم كانت تسود كل الإنتاج الفنى بجميع فروعه فى ذلك العصر .

وإذ نلقى نظرة عامة فى فنون العصر نرى إلى أى حد أثر اتجاهه العلمى على تعبيره الفنى . فنجد أن العمل الفنى أصبح فى كليته رمزاً للكون بوصفه كائناً عضوياً موحداً تشبع الحياة فى كل أجزائه ، وكل من هذه الأجزاء يشير ، شأنه شأن الأجرام السماوية إلى اتصال لا نهائى متصل وهكذا نجد أن المحاور الجريئة والتجسيمات المفاجئة ، والتأثيرات الضوئية الظلية المبالغ فيها ، كل ذلك كان

(*) فكانت هذه النظرة تري أن الأرض هي مركز الكون ، وصاحب ذلك اعتقاد أن الانسان هو محور الأرض ، فاتحة الثقافة إلي البحث عما حوله . دار البحث حول الضوء واكتشف المنظار الفلكي والميكرسكوب والتلسكوب والترمومتر وغيرها ، واعقب بحوث جاليليو ما أحرز نيوتن من نجاح عظيم في بحث مشكلة طبيعة الكون ، وظهور كتابه «المباديء الرياضية للفلسفة الطبيعية» ثم كتابه «البصريات» ومباحثة حول ظاهرة الألوان وإعادة تركيبها . وإزدهر علم الحياة في هذا العصر إلي جانب علم الفلك والطبيعة ، فالإنسان الذي دأب علي التأمل حوله واكتشاف خارجه بدأ أيضاً يعكف علي داخله ، فظهرت أبحاث وليم هارفي في وظائف الأعضاء وحركة القلب ودورة الدم ، وظهرت مواد كيمائية جديدة وأكتشفت الأكسجين، وأكدت نظريات بيكوني أصول المذهب التجريبي ، وظهرت فلسفة ديكارت القائمة علي سيادة العقل، كما ظهر ذلك في كتابات باسكال (بدر الدين ابو غا زي – د.ت – ٣٣٧) .

تعبيراً عن حنين طاغ لايرتوى إلى اللامتناهى للاهتمام والبحث الدائب فيما حول الإنسان .

فكل خط يقود العينين إلى المسافة ، وكل قالب مشبع بالحركة يبدو أنه يحاول تجاوز ذاته ، وكل موضوع فى حالة توتر وإجهاد . وكل ذلك يعبر فى ذاته عن أسلوب الباروك فى أنه السعى وراء المتناهى (أرنولد هاوزر - د.ت - ٤٨٠- ٤٨١) .

فالفرد كما كان محور الفلسفة والعلم كان أيضاً محور الفن ، ومن هنا كان العصر عصر الصور الشخصية فى تعبيراتها المختلفة التى تمثل سياحة الفنان فى العوالم الخارجية والداخلية للإنسان (بدر الدين أو غازى - د.ت-٣٣٧ ، ٣٣٨) ونرى ذلك فى اللوحات العديدة فى هذا العصر التى كان البعض منها بالألوان الكاملة مرسوم من المصدر بكل تفاصيله بشكل القماش بالإضافة إلى النماذج المختلفة لأساليب الزخارف والزينة المستخدمة فى الأزياء ، وبالإضافة إلى النماذج المختلفة لأساليب الزخارف والزينة والمستخدمة فى الأزياء ، وبالإضافة إلى اللوحات الخاصة بالملوك والأرستقراطية والنبلاء ، فكانت هناك القليل من اللوحات التى تصور الطبقة الوسطى ، والطبقة الفقيرة (Yarwood-1992-8) .

ولذا يبدو فى أسلوب العمل الفنى سمة عامة تتمثل فى سيطرة الباروك الذى أصبح رمزاً للعصر وممثلاً لمعالم فنية معينة كمعالم الفن القوطى فى العصور الوسطى ، ومدلولاً عاماً لاينتسب إلى وطن معين وإنما يحمل سمات فنية مشتركة بين بلاد عدة ساهمت فى إثراء الحياة الفنية فى هذا العصر بمعالم لها خصائص البذخ والترف والفخامة والمبالغة التشكيلية وحرية التكوين فى أشكاله المركبة التى ابتدعها الباروك وقد سادت روح هذا الطراز الجديد على جميع الفنون التشكيلية بهذا العصر من عمارة ونحت وتصوير (بدر الدين أو غازى - د.ت - ٣٣٨) وظهرت الأزياء منطلقة بفنيات تتبع ذلك الطراز الفنى بشكل تلقائى مما أثمر إلى حدوث توافق بين فن الأزياء والفنون التشكيلية الباروكية المتواجدة فى ذلك القرن.

ولكن لايجوز النظر إلى الطراز الباروكى من وجهة النظر الجمالية فحسب ، فهو وثيق الارتباط بالظروف الدينية والاجتماعية والسياسية ، وخاصة بالحركة المناهضة للإصلاح الدينى ، ومن هنا كان هدف الطراز الباروكى المسرحى المثير دعائياً خالصاً ، حتى يمكن القول بأن الطراز الباروكى هو التعبير الوجدانى عن

الكاثوليكية ، ومع ذلك فقد انسحب الطراز الباروكى بالمثل إلى خدمة الأهداف الدنيوية تعزيزاً لسلطة الملوك والأمراء ، ولذلك لم يقتصر ظهوره على إيطاليا وحدها ، بل امتد إلى دول أخرى تسيطر عليها الأرستقراطية وتتفشى فيها الكاثوليكية مثل فرنسا وجنوب الأراضى الواطئة وأسبانيا والبرتغال ، كما ظهر بالعالم الجديد فى المكسيك والبرازيل واتخذ فن الباروك لنفسه مظاهر شتى باختلاف الدول ، والبلدان والأنظمة السياسية والمذاهب الدينية (ثروت عكاشة – ١٩٨٨–٥) (ثروت عكاشة – ١٩٩٠–٤٤) .

فالباروك فى أوساط البلاط الكاثوليكية يختلف عنه فى مجتمعات الطبقة الوسطى ، والمجتمعات البروتستانتية بل أن المرء يستطيع أن يدرك وجود فوارق حاسمة حتى فى ظل كل من هذين الاتجاهين الأسلوبين الكبيرين وأهم هذه الانقسامات الفرعية هى انقسام الباروك البلاطى الكاثوليكى إلى اتجاه حسى ، زخرفى مادى ، بالمعنى التقليدى للفظ الباروك ، وأسلوب كلاسيكى النزعة ، يتميز بأنه أكثر صرامة وأدق من الناحية الشكلية .

صحيح أن التيار الكلاسيكى كان مائلاً فى الباروك منذ البداية ، ومن الممكن التأكد من وجوده بوصفة تياراً خلفياً فى جميع الأشكال القومية الخاصة لفن الباروك ، ولكنه لايصبح هو السائد إلا فى حوالى عام ١٦٦٠ فى ظل الظروف الاجتماعية والسياسية الخاصة التى سادت فرنسا فى ذلك الوقت لذا فالباروك يكون أبعد بكثير عن التجانس فى فترة مثل القرن السابع عشر ، كانت فيها بالفعل مستويات اجتماعية متعددة ، لكل منها نظرية ذات الصبغة الفردية المطلقة إلى الأمور الاقتصادية ، والسياسية ، والدينية ، ويواجه كل منها الفن بمشكلات تختلف فى كثير من الأحيان أشد الاختلاف .

فالأهداف الفنية للهيئة البابوية فى روما كانت مختلفة أساساً عن أهداف البلاط الملكى فى فرساى (أرنولد هاوزر – د.ت – ٤٧٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠) . فبالنسبة للهيئة البابوية فى روما ، فقد أستخدمت الفن لتمجيد الدين وذلك بغية تأكيد سلطة الكنيسة الكاثوليكية ، أما بالنسبة للبلاط الملكى فرساى ، فقد استخدم الفن لخدمته وتسجيل مظاهر حياته ، وفى الطبقة الأرستقراطية المحيطة بالبلاط التى أخذت تعنى بالفنانين وتحتضن أعمالهم لذا فقد كان عصر «لويس» الرابع عشر «الملك الشمس» فى فرنسا واهتمامه بتسخير الفن لخدمة أغراضه ونزوات ترفه ، من أهم المؤثرات التى أثرت على تطور الفنون فى هذا العصر ، وعلى

الاتجاهات التى سيطرت عليها وشكلت طابع العصر وذوقه (بدر الدين أبو غازى - د.ت - ٣٣٩) .

ولذا ترى الباحثة فى ضوء إلمامها بأغلب الموسوعات والمراجع التى تناولت فن الباروك بالقرن السابع عشر فى كل من إيطاليا وفرنسا ، أن هذا الفن ينقسم إلى مرحلتين أسلوبيتين يمكن التميز بينهما بكل دقة . وهما مرحلة الاتجاه نحو الأسلوب الحسى الزخرفى المادى (الباروكى الرومانى) ومرحلة الاتجاه نحو الأسلوب الكلاسيكى النزعة (الباروك الفرنسى) يوجد بينهما حداً فاصلاً وهو بداية فترة الحكم الشخصى للملك لويس الرابع عشر سنة ١٦٦١ .

ولكن ليس معنى ذلك أن النزعة الكلاسيكية كانت متمثلة فقط فى الباروك الفرنسى ، فللنزعة الكلاسيكية تاريخ لايقل طولاً واتصالاً فى إيطاليا عنه فى فرنسا.

وفى القرن السابع عشر لانكاد نجد عملاً واحداً يرتكز بصورة نقية خالصة على الأسلوب الباروك الحسى وحده ، فحينما وجدنا محاولات تسير فى اتجاه الباروك نكتشف أيضاً نزعة كلاسيكية متطورة بدرجات متفاوتة . ولكن هذه النزعة الكلاسيكية تجلت بصورة واضحة فى الباروك الفرنسى وذلك فى ظل الظروف الاجتماعية والسياسية التى سادت فرنسا فى هذه الفترة .

ولذلك يمكن تقسيم فن الباروك فى إيطاليا وفرنسا إلى :

١- فترة الباروك الرومانى أو الدولى ١٦٠٠ : ١٦٦٠

Roman Baroque "International Baroque Style"

٢- فترة الباروك الفرنسى أو الكلاسيكى ١٦٦١ : ١٧١٥

French Baroque "Classical Barouqe"

ونستخلص مما سبق

إن الطراز الباروكى للأزياء فى القرن السابع عشر «إيطاليا ، فرنسا» قد تأثر بصورة واضحة ومباشرة بالأحوال السياسية والاقتصادية ، الاجتماعية ، والثقافية الخاصة بهذا القرن .

فبالنسبة للحالة السياسية والاقتصادية فى إيطاليا ، فنجد أن حالة التفكك والانقسام السياسى قد أثرت على الأزياء الإيطالية فى القرن السابع عشر ، فلم يكن

لإيطاليا أسلوب مميز ، ولازى قومى ، حيث ساهمت العديد من الموضات الأجنبية العالمية فى تشكيل الأزياء الإيطالية بالقرن السابع عشر ، فكانت الأجزاء الخاضعة للحكم الأسبانى تسيطر عليها الموضة الأسبانية ، والمناطق الخاضعة للحكم الفرنسى تسيطر عليها الموضة الفرنسية ، أما المقاطعات الإيطالية المتحررة التابعة للهيئة البابوية فى روما فكانت تصميمات أزيائها تتبع الخطوط الطبيعية البسيطة لتحقق أكبر قدر من الراحة تبعاً لفلسفة الحركة الإنسانية هذا بالإضافة إلى أن هناك أجزاء من إيطاليا جمعت أزيائها بين موضات مختلفة .

وبالرغم من أن الحالة الاقتصادية قد تأثرت بعدم الاستقرار السياسى ، إلا أن إيطاليا قد ظلت إلى منتصف القرن من أهم الدول المنتجة لنوعيات الخامات النسيجية المختلفة فى أوربا وذلك لما لها من شهرة عريقة كمصدر للأقمشة الجميلة الفاخرة ، بجانب شهرتها بصناعة الدانتيلة منذ القرن الثالث عشر ، حيث يرجع لها الفضل فى انتشار أروع ما صنع من الدانتيلات التى كانت تزين الملابس بكثرة وتكسو أجزاء منها فى النصف الأول من القرن ، ولكن بعد منتصف القرن تم تجاهل الذوق الإيطالى وحل محله الذوق الفرنسى وذلك نتيجة لتدهور الحالة الاقتصادية بإيطاليا .

أما بالنسبة لفرنسا ، فقد أثرت الحالة السياسية المستقرة القائمة على الحكم الملكى المطلق بفرنسا على الأزياء الفرنسية بالقرن السابع عشر ، وذلك بفضل السياسة التى اتبعها ملوكها ، وذلك بالإهتمام بكافة المقومات الاقتصادية للبلاد من زراعة ، وصناعة ، وتجارة ومال بقصد تنظيمها وتوجيهها من ناحية ، وزيادة إنتاجها لخدمة الدولة وإعلاء شأنها من ناحية أخرى .

فنجد أن الملك هنرى الرابع (١٥٨٩-١٦١٠) ، قد استطاع النهوض بالبلاد وتنظيم الإدارة المالية بها ، وتأسيس العديد من الصناعات المختلفة كصناعة الحرير ، والأقمشة المزركشة بالذهب ، الستان ، والخيوط الذهبية ، الجلود ، وغيرها من الصناعات الدقيقة ، وقد كان لذلك أثر كبير على ثراء وفخامة الخامات المستخدمة بالأزياء فى هذه الفترة ، ولذلك نجد الأزياء فى فترة حكمه مثل أزياء نهايات القرن السادس عشر ولكن مع إحساس جديد بالرزانة واللياقة والذوق بها .

كما نجد أن الملك لويس الثالث عشر (١٦١٠-١٦٤٣) ، قد اتبع سياسة الحكم السابق ليجعل فرنسا صاحبة النفوذ الأعلى والكلمة النافذة فى العالم ، فعمل

على تشجيع الصناعات المختلفة ، وأسس عدة شركات للتجارة ، ومن أهمها شركة فرنسا الجديدة لتجارة الفراء ، وقد أثرت هذه التجارة المزدهرة على الملابس ومكملاتها فى هذا القرن ، فزينت أجزاء مختلفة من الملابس بالفراء الثمين ، كما بطنت أجزاء كاملة بالفراء ، واستخدم فى صناعة مكملات الملابس الخاصة بتدفئة اليدين «الموفة» وفى وشاحات العنق ، والدثارات ، وقد كان لذلك أثر كبير جداً على ثراء الأزياء وفخامتها فى هذه الفترة .

أما الملك لويس الرابع عشر (١٦٤٣-١٧١٥) ، فلم يظهر تأثيره الواضح على الموضة والأزياء فى الفترة الأولى من حكمه (١٦٤٣-١٦٦١) ، حيث كان الملك فى أثنائها صغير السن ، وكانت مقاليد الأمور فى أيدى أمة الملكة «آن» ، والوزير «مازارين» ، اللذان اتبعا نفس سياسة الحكم الملكى السابق . ولكن بعد أن تسلم لويس الرابع عشر زمام الحكم ليسوس فرنسا بنفسه ابتداء من سنة ١٦٦١ ، وبسط سيطرته المطلقة على كل مجالات الحياة بها ، فلم يفلت ميدان واحد فى الحياة العامة من تدخل الدولة ، إذ أن القانون ، والإدارة ، التجارة ، والدين ، والآداب ، والفن ، كل هذه كانت تنظمها الدولة المتمثلة فى الملك الشمس .

وهكذا امتدت سياسة الحكم المطلق وأثرت أيضاً على فن الأزياء ، وحيث وضع الملك لهذا الفن نظام رسمى قاسى لمنع ظهور أى بدع أو نزوات شخصية فى الأزياء . فلم تكن الملكة أو زوجات البلاط الملكى هن المتحكمات فى موضة ذلك الوقت ولكن كان التحكم كله لوزراء الملك الذين ينفذون الموضة التى يحددها الملك وقد كان كل شىء فى الأزياء يحدد بأسلوب مدروس ويطبق كما حدده الملك، بالإضافة إلى ذلك شدد الملك على القوانين التى تمنع استيراد الأقمشة الأجنبية من الخارج ، فأقيمت فى فرنسا العديد من الصناعات التى لم تكن معروفة فيها من قبل كصناعة الدانتيلة والحرير بمختلف أنواعها ، والمنسوجات القطنية ، وحدثت نهضة عظيمة فى صناعة المنسوجات ، وخاصة صناعة الدانتيلة ، وأصبح تزين الملابس ومكملاتها شىء أساسى وقد أضفى ذلك على الأزياء المزيد من الفخامة والتأنق .

أما الحالة الاجتماعية ، فقد أثر الانقسام الطبقى للمجتمع فى «إيطاليا ، فرنسا» على الأزياء فى كل منهما فبالنسبة لإيطاليا ، كان المجتمع مؤلف من طبقتين ، طبقة النبلاء (الطبقة الأرستقراطية) وهم يؤلفون الطبقة العليا التى تحيا فى حياة الترف والبذخ ، وقد انعكس ذلك على أزيائهم فتميزت الأزياء بالفخامة

وبالإفراط الشديد فى الموديلات والخامات المستخدمة ، وأساليب الزينة ، وطبقة عامة الشعب ، وهى تلك الطبقة التى تشمل الجموع الغفيرة التى ظلت تحتفظ بسلوكيات حياتها ولم تتأثر بالنهضة الباروكية ، وبدت فى أشكال متواضعة انعكست على مظهرها الخارجى حيث أرتدوا نوعيات من الأزياء القديمة التى يرجع أصلها إلى الأصل الإغريقى الرومانى .

أما بالنسبة لفرنسا فكان المجتمع مكوناً من ثلاث طبقات رئيسية وواضحة ، الطبقة الأولى وهى طبقة النبلاء (الطبقة الأرستقراطية) وتضم هذه الطبقة فئات فردية كالأمراء ، ورجال البلاط ، ورجال المال ، الذين يستمدون قوتهم من عطف الملك ومن محاباته لهم ، ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه فى حالة استعداد دائم للتأمر على التاج .

الطبقة الثانية وهى الطبقة الوسطى (الطبقة البرجوازية) وتعد هذه الطبقة اليد المساندة لسياسة الحكم القوية ، والتى دائماً تبلغ أوج ازدهارها عندما يكون هناك سلام داخلى فى البلاد ، لذا فقد عمل الملك على القضاء على نفوذ سلطة (النبلاء) ومعارضتها للتاج وذلك برفع الطبقة البرجوازية إلى طبقة النبلاء ومنحها ألقاب النبلاء ، وقد أطلق عليها (طبقة النبلاء المعينيين) وقد أثر تغيير الأوضاع الاجتماعية بين الطبقات على الأزياء ، حيث بالغت طبقة النبلاء فى البحث عن مكانتها المرموقة والتميز عن الطبقة البرجوازية وذلك من خلال المبالغة فى ارتداء الأزياء الفخمة الأنيقة .

هذا بالإضافة إلى أن الأزياء الملكية وأزياء أفراد الحاشية بقصر فرساى قد ارتبطت بالعادات الاجتماعية وبالنظام الرسمى القاسى الخاص بالبلاط الملكى ، وقد كان ذلك عبارة عن دائرة لاتنتهى من الحفلات والأنشطة المختلفة والتى كانت تتطلب تغير مستمر للأزياء فى كل مناسبة ، حيث كان الملك يطلب من نساء ورجال البلاط الملكى ارتداء ملابس جديدة دائماً .

أما الطبقة الثالثة فهى الطبقة الفقيرة التى تمثل الغالبية العظمى من الشعب، والتى لم تكن تحيا داخل عظمة إطار الحياة الباروكية ، وقد انعكس ذلك على أزيائها ، فإرتدت الأزياء القديمة ، ولم تستطع مسايرة الاتجاهات الجديدة لنوعيات الأزياء الباروكية .

وقد أثرت الحالة الثقافية أيضاً على الطراز الباروكى للأزياء فى القرن

السابع عشر «إيطاليا ، فرنسا» حيث كان العلم محور الفن ، وكانت النظرة الكلية الشاملة التى عبر عنها هذا العلم تسود كل الإنتاج الفنى بجميع فروعه فى ذلك العصر ، وقد عبر فن الباروك عن هذا الاتجاه العلمى والفلسفة الجديدة المبنية عليه وذلك بالمبالغة التشكيلية والتجسيمات المفاجئة ، والمحاور الجريئة ، والتأثيرات الضوئية والظلية المبالغ فيها ، وحرية التكوين فى أشكاله المركبة وفى خطوطه المملؤة بالحرية والحركة ، والتى يذهل تتبعها بالعين ، وكل ذلك يعبر فى ذاته عن أسلوب الباروك أنه السعى وراء اللامتناهى ، وهو نفس الاتجاه العلمى الفلسفى فى البحث فيما حول الكون إلى اللامتناهى . وقد ساد روح هذا الطراز الجديد على جميع الفنون التشكيلية وظهرت الأزياء منطقة بفنيات تتبع ذلك الطراز الفنى بشكل تلقائى ، وتظهر خصائص البذخ والترف والفخامة فى تكوينات خطوطها اللينة ، وكتلها الضخمة الثرية ، وتأثيراتها اللونية والظلية المبالغ فيها ، وخاماتها المتنوعة ، وأساليب الزينة المتعددة بها .